مكسيم رودنسون والاستشراق

سنحاول مناقشة أهم النقط التي أثارها مكسيم رودنسون حول الاستشراق . معتمدين أساسا على ما ورد بهذا الصدد ، في كتابه : جاذبية الاسلام La fascination de l'Islam ومركزين على المحاور الآتية :

- حقل الدراسات الاستشراقية .
- الاستشراق كخطاب ايديولوجي .
- آفاق البحوث الاستشراقية

1) **حقل الدراسات الاستشراقية** : يرى مكسيم رودنسون أن الاستشراق بمعناه الكلاسيكي قد ارتكز في دراسته للمجتمعات الشرقية ، ومن ضمنها المجتمع العربي الاسلامي ، على علمين عرفا ازدهارا كبيرا في القرن 19 وهما : الفيلولوجيا والتاريخ المقارن للأديان . فانطلاقا من مراجعة الكثير من النصوص والوثائق ، وتنقيحها ونشرها ، وبالاستفادة من نتائج تاريخ الأديان ، كون الاستشراق الكلاسيكي (رينان ، فلهوزن ، غولد زيهر ...) رصيدا معرفيا هاما حول هاته المجتمعات . لقد كانت هناك معلومات وافرة ، لكنها لم تتسم بالدقة المنهجية ، كما لوحظ غياب تام للطرح الاشكالي ضمن بحوث المستشرقين : « فالأبحاث الفيلولوجية التي ارتكزت عليها كل الدراسات المهتمة بالحضارات الشرقية ، لا تتوفر على أية اشكالية نظرية خاصة بها ، فهي قد اكتفت بدراسة النصوص وتنقيحها » (1) .

من جهة أخرى ، وانطلاقا من دراسات تاريخ الأديان ، توصل المستشرقون الى نتائج تقرر بأن العامل الديني يهيمن على مجمل نشاط المجتمعات الاسلامية ، وبالتالي فانه ينظر الى تاريخ هاته المجتمعات كتاريخ له مساره الخاص والمتميز عن مسار التاريخ الكوني (كما يراه الغرب طبعا) كما ينظر الى فعالية الانسان المسلم كفعالية خاضعة للديني بشكل مطلق ، ومن هنا يرى رودنسون أن مثل هذا التصور يسقط في « المثالية التاريخية »،

هل تجاوز الاستشراق الجديد القائم على معطيات العلوم الانسانية مثل الانثولوجيا والتاريخ الاقتصادي والسياسي ، والسوسيولوجيا الخ ، تلك التصورات المثالية ، وهل تمكن من اقامة صيغ ومفاهيم جديدة للتعامل مع الاسلام ؟

يشير رودنسون الى أن « تقدم العلوم الانسانية اظهر تنوعا لمشاكل لا يمكن ان تجد لها حلا لدى الفيلولوجيين وحدهم » (2) بمعنى آخر ان تعدد المشاكل المتعلقة بالمجتمعات الاسلامية ، استوجب تدخلا لمختلف العلوم الانسانية للبحث عن حلول لها ، وهذا يذكرنا بما اكده جاك بيرك وهو بصدد حديثه عن ممارسته العلمية : « ليس هناك استشراق بالمعنى العتيق للعبارة، فالأمر يتعلق بجناح شرقي للعلوم الاجتماعية والانسانية ، وبمساهمة مستمرة للباحثين من كل صوب » (3) .

في هذا الاطار يتكلم رودنسون عن اهمية العلوم الانسانية في صياغة اشكاليات جديدة تساهم في توسيع حقل المعرفة الاستشراقية . وهكذا ــ وعلى سبيل المثال ــ « فان اثنوغرافيا الشعوب الاسلامية ، هو الحقل الذي برز فيه بشكل اكبر ، تاثير الاشكاليات الجديدة ، حيث نتجت عن ذلك دراسات قيمة كدراسات ادموند دوتي (1867 ــ 1921) وادوارد فسترمارك (1862 ــ 1939) E. Westermarck (4) Edmon Doutté.

السؤال المطروح هو : هل تشكل البحوث الاستشراقية المرتكزة على معطيات العلوم الانسانية ، فعلا قطيعة مع الاستشراق التقليدي ، وبالتالي هل يمكن اعتبار ممارستها العلمية بعيدة عن كل خلفية ايديولوجية ؟

2) الاستشراق كخطاب ايديولوجي :

يعترف رودنسون بالتاثير السلبي الذي تمارسه الأفكار الجاهزة على البحوث الاستشراقية ، وهو يبرر ذلك بتاكيده على ان التعامل مع الغير « الآخر » يبقى مشروطا بنوعية النظرة القائمة حول هذا الآخر . « ان الابحاث الاكاديمية تتاثر اكثر مما تؤثر في الافكار القائمة ، وما من احد يكره او يحب مجانيا ، شعبا او ثقافة خارجية » . (5)

ان رودنسون سيحدد مجموعة عيوب ميزت الدراسات الاستشراقية منها :

- تصورها الثبوتي والميتافيزيقي للثقافات .
- ارتباطها « الجزئي » بالسياسة الامبريالية .
- نكهتها الشرقية .

فالاستشراق ، وانطلاقا من مواقفه المتمركزة حول الذات (الغربية) ، توصل الى نظرة ميتافيزيقية ، فهو ، وكما يؤكد ذلك ادوارد سعيد « يعاين الشرق بوصفه شيئا وجوده معروف دائما للغرب ، وبوصفه أيضا شيئا بقي ثابتا في الزمان والمكان ، من أجل الغرب . لقد كانت نجاحات الاستشراق الوصفية والنصية من الفخامة والتأثير بحيث أن مراحل كاملة من تاريخ الشرق الثقافي والسياسي والاجتماعي تعتبر الآن مجرد استجابات للغرب ، فالغرب هو المشاهد ، والحكم ، والمحلفون ، لكل وجه من أوجه سلوك الشرق » (6) .

ان تعامل المشرق مع الآخر (المجتمع الشرقي عموما ، والعربي الاسلامي على الخصوص) يقوم على عقدة التفوق : تفوق جنسي (رينان ، جوتييه) وثقافي (فون غرونباوم ، ماكدونالد ...) بل وحتى في حالة « التعاطف » مع المجتمع الاسلامي (ماسينيون مثلا) فان المضمر الغير المعترف به يبقى ذلك الشعور بهامشية هذا المجتمع وبساطته ودونيته . (7)

ان مكسيم رودنسون واع ، بصعوبة التعامل مع ثقافة الآخر (المختلف) وبالمزالق النظرية التي قد تؤدي اليها كل دراسة قائمة على أحكام مسبقة (عن وعي أو عن غير وعي) ؛ لكن بدل ان يطرح النزعة المركزية الغربية كعائق معرفي في فهم الشرق ، نراه يقرر بنوع من القدرية Fatalisme أن لا مناص من وجود رؤية هكذا ، لأن كل نظرة الى الغير من الضروري ان تكون محملة بقيم الذات التي تشكل معيارا للحكم ، « لا معنى للقول بأن المواقف العرقية ، وخدمة السياسات الامبريالية قد شوهت مجمل الدراسات الانثربولوجية والاثنوغرافية والاستشراقية الاروبية عموما ، فكل المجتمعات المتوفرة على فائض معرفي ، وجدت من الأفيد دراسة المجتمعات الأخرى ؛ وهي قد فعلت ذلك تحت تأثير انماطها الفكرية التي تمثل بالنسبة لها ـ وبشكل لا شعوري ـ النموذج الكوني الامثل » (8) . اذن سواء تعلق الأمر بالاستشراق التقليدي او بمجال العلوم الانسانية (انثولوجيا ، اثنوغرافيا ، تاريخ اقتصادي الخ ...) فانه لا يكمن للباحث (الغربي) أن يتحرر من « منظومته المرجعية » المتمثلة في نمط ثقافته ، وبالتالي سيشكل الحقل الايديولوجي عائقا ابستمولوجيا امام امكانية تصور علمي موضوعي .
(يشير عبد الكبير الخطيبي بهذا الصدد وفي مقال له حول جاك بيرك والنكهة

الشرقية ، أن الاستشراق رغم التغيرات الطارئة على مناهجه ورغم استفادته من معطيات العلوم الاجتماعية ، فان اشكاليته المهيمنة لم تتغير) (9) .

يبقى هناك سؤال مطروح وهو : ماذا يمكننا أن ننتظر من مختلف الدراسات الاستشراقية ؟

3) آفاق البحوث الاستشراقية :

ما دامت هناك مشاكل تقف في وجه المستشرقين ، وتحول دون قيام نظرة موضوعية لمعرفة الآخر (الشرق عموما) فهل يمكننا أن ننادي بموت الاستشراق ؟

ان مكسيم رودنسون يرفض الحديث عن نهاية الاستشراق ، لأنه ليس هناك « علم استشراقي » محدد ، بل هناك مشاكل متنوعة تخص المجتمعات الشرقية ، تشكل حقلا لدراسات مختلف العلوم الانسانية ؛ فالشيء الذي انتهى هو هيمنة الفيلولوجيا في الدراسات الاستشراقية ، « ان تضاعف المواد المتاحة ، وكذلك أدوات العمل وتقدم مناهج الدراسة يسمح الآن لا بتخطي مرحلة الفيلولوجيا وانما باعطائها قدرا أقل من الوقت . كما أوضح تقدم العلوم الانسانية كذلك تعقدا لمشاكل لا يمكن للمرء أن يحلها بأسلحة المعرفة العميقة للغة وحدها ، وللادراك السليم ، والهام الأفكار الفلسفية الشديدة العمومية . وهكذا أصبحت ممارسة الدراسات الشرقية ـ والدراسات الاسلامية بشكل خاص ـ أكثر صعوبة وأقل خصوصية ، وأصبح الاتصال بالنظم العلمية الأخرى ـ وهو الذي كان ترفا فيما مضى ـ ضرورة ملحة » (10).

ان رودنسون يعترف بوجود أزمة يمر منها الاستشراق ، لكن هاته الأزمة في اعتقاده ـ يمكن تجاوزها اذا ما تم :

* طرح اشكاليات جديدة مرتبطة بواقع المجتمعات الشرقية الحالية .

* التحرر من نزعة المركزية الغربية والانصات الى الباحثين الذين ينتمون الى المجتمعات المدروسة ، من أجل بناء معرفة مشتركة

* الاهتمام بالقضايا المهمشة من طرف الدراسات الكلاسيكية مثل : مرحلة الانحطاط ، تاريخ العادات الخ .

* الاهتمام بمشاكل العصر ، ومشاركة الشعوب المعنية قضاياها الملحة في التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي الى غير ذلك .

هل ستساعد هذه الشروط ـ فيما اذا تحققت ـ على بناء تصور دقيق وموضوعي للمجتمعات الاسلامية ؟

ان رودنسون يؤكد على « استحالة وجود منهج علمي « خالص » لدراسة الثقافات والمجتمعات » - (11) .

وعلى هذا الأساس يظل الارتباط بين العلمي والايديولوجي قائما ، وتبقى الآليات اللاواعية تفعل فعلها في التاثير على ممارسة الباحث النظرية ، فكيف يمكن لهاته الممارسة أن تكون بريئــة ؟

عز الدين الخطابي

هــوامــش :

1) Maxime Radinson : La fascination de l'Islam. Petite Collection Masperé. Paris 1980. p. 85

2) Ibid. p. 106

3) Berque (J) Arabies. Etition Stock. p. 186

4) Maxime Rodinson : ouvrage cité. p. 92.

5) Ibid p. 153

(6) ادوارد سعيد : الاستشراق : المعرفة ـ السلطة ـ الانشاء .
ترجمة كمال ابو ديب . مؤسسة الابحاث العربية . بيروت الطبعة العربية الاولى 1981 . ص : 132 .

(7) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع الى كتاب ادوارد سعيد السالف الذكر . كما يمكن الاطلاع كراس صادق جلال العظم :

الاستشراق والاستشراق معكوسا . دار الحداثة . بيروت . ط. الاولى 1981 .

8) Maxime Rodinson : Situation, acquis et problèmes de l'orientalisme islamisant. In Le Mal de voir. Cahier Jussieu 12 10/18 (1976) page 255.

(9) يمكن الرجوع الى مقالة عبد الكبير خطيبي : بيرك والنكهة الشرقية . ترجمة محمد برادة المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع عدد 4 : 1978 .

(10) مكسيم رودنسون : صورة العالم الاسلامي في اوربا .
عن مجلة الطليعة : عدد 2 . السنة 6 القاهرة ، فبراير 1970 . ص. 83 .

11) Maxime Rodinson : La fascination de l'Islam. Ouv. Cité p. 110.